

سلعة اللغة في زمن العولمة

الأستاذ المساعد الدكتور

لؤي عمر بدران

الإمارات العربية المتحدة

جامعة زايد – كلية التربية - قسم اللغة العربية

loaybadran@yahoo.com

The commodity of language in the time of globalization

Education – Loay Badran

Assistant professor Dr. Loay Omar Badran

United Arab Emirates

Zayed university - Education College - Department of Arabic

الملخص :

يتناول هذا البحث أهم مظاهر العولمة التي تهدد واقع اللغة العربية إذ لا بد من تداركها قبل استفحال الخطر الذي ما زال محدقا باللغة العربية التي حسيها أنها لغة القرآن الكريم وقد حباها الله الحماية واكتسبت في نفوس المسلمين والعرب كل المهابة والاحترام فالمكانة الدينية للغة العربية كفيلة بحمايتها واستمرارها بيد أنه لا يمكن الركون إلى ذلك والتخلي عن مسؤولياتها تجاه حماية العربية وبالتالي ديمومتها وديمومة حضارتها الاجتماعية والأدبية والدينية والانتقال بها إلى لغة العلم التي بها وحدها تثمر آمال الأمة في التقدم والعزة والاستمرار ، وبها وحدها يتبلور المشروع الوحدوي العربي القائم على وحدة هذه اللغة والتاريخ المشترك .

الكلمات مفتاحية : العولمة – الثقافة ، سلعة – الدين – اقتصاد .

Abstract:

This research discusses the most important appearances of globalization that threaten the Arabic language. Surely, these appearances must be destroyed before the extension of the danger attacking the Arabic language which is the language of the holy Quran, God's protected language, and Arabs and Muslims' precious language due to its religious importance that demands its protection and continuation. The continuation of the Arabic language is related to culture, literature, religion and sciences which contribute in the glory and pride of our nation and helps in sustaining a unified Arab world that shares the same language and history .

Key words : Globalization , Culture , Commodity , Religion , Economy.

أولاً: مهاد – ما قبل مفهوم العولمة

العولمة، العالمية، مركزة العالم، تسليع كل شيء في الأرض، العالم لغة واحدة، العالم ثقافة واحدة، والقائمة تطول، وكل هذه الأشياء مصطلحات خلافية ينظر لها المنظرون كل حسب الهالة التي حاولوا تفسير العولمة من خلالها.

والعولمة المقصودة ههنا تلك التي تقابل بالإنكليزية (GLOBALIZATION) تنازعها الدراسات ما بين مؤيد ومعارض، فأما المؤيد فتبنى فكرة مروجيها الغربيين ومن تبعهم من المفكرين الشرقيين دوغما فهم منهم حقيقي أو تبصر لهذا التحول الذي يأخذ كل شيء يقف في الطريق، وأما المعارض فقد تبصر المفهوم وأدرك أن البنية العميقة لدول العولمة لها وسائل وأهداف خبيثة تناقض تلك التي تبدو على السطح لتعبر عن الكنز الدفين!!!

وتزاحمت الدراسات حول العولمة تحليلاً ووصفاً باحثة عن أبعادها الحقيقية وآثارها العالمية وحدودها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية والحضارية واللغوية، بيد أنه وقبل الوصول إلى تحديد الأطر الحقيقية للعولمة لا بد لنا - قبل الحديث عن حدودها وأبعادها ومراميها الآتفة الذكر والولوج في تقعيد حقيقي يصل بان إلى معنى العولمة - من معرفة من هو المعلوم ومن هو المعلوم حينها سندرك الفهم الحقيقي للعولمة، وإذا ما أدركنا أن المعلوم هو أمريكا والدول الأوروبية وهما يمثلان القوة، وأن المعلوم هو سائر العالم الذي يمثل الضعيف - إن استثنينا جدلاً روسيا والصين - عندها ندرك أن العولمة تقتضي طرفين: الأول القوي / المعلوم والثاني الضعيف / المعلوم. والسؤال الآن: ماذا يريد المعلوم من المعلوم؟؟

إن الإجابة على هذا السؤال تبدو بسيطة للوهلة الأولى وهي السيطرة لأنه من قانون الطبيعة الكونية سيطرة القوي على الضعيف، فإن كان الأسد الذي يمثل ملك الغابة بقوته وسطوته يسيطر على الضعيف لأجل استمرار قوته أو لربما يأكله إن اقتضى الأمر من مبدأ أن الأسود تأكل الكلاب إن تعذرت الغنم، وهو يبرر السيطرة الاقتصادية المتمثلة في قوته في هاتيك الغابة، فإن السيطرة التي يريدها المعلوم على المعلوم لا تقتصر على جانب القوت الاقتصادي، بل تستهدف ما هو أبعد من عوامل الإنتاج، لذا لا بد

أن يتجلى للباحث في العولمة العلاقة الخفية بينها وبين الأبعاد الأخرى التي تتجاوز قوت الأسد.

والعولمة لا يمكن أن تفسر ضمن بعد واحد إذ إنها دائرة شديدة الإحكام لا تكتمل إلا باستهداف كل مناحي الحياة التي تتمثل فيها الأبعاد الأخرى، ولما كان درس هذا البحث الموسوم بـ العولمة واللغة مقتصرًا على اللغة بوصفها بعدًا مستهدفًا كسائر الأبعاد إن لم يكن أخطرها كان لا بد من على الأبعاد الثقافية التي ترمي إليها العولمة لأن اللغة ركن القافة الأساسي والعكس صحيح، وبذا ومن أجل استهداف اللغة لا بد للعولمة أن تستهدف التراث الثقافي (CULTURAL HERITAGE) والتعددية الثقافية (MULTICULTURAL)، والتفكير بالهوية (IDENTITY THINKING) والتقارب الثقافي (CULTURAL CONVERGENCE)، وصدام الحضارات (CLASH)، والمخزون الثقافي (CULTURAL STOREGE) وصناعة الثقافة (INDUSTRY CULTURAL) و المنظر الثقافي العام (CULTURAL LANDSCAPE) والنظرية الثقافية العالمية (WORLD CULTURAL THEORY) وأخيرًا ما وراء الثقافة (METACULTURE)، وسوى ذلك من الأبعاد التي لها اتصال عميق باللغة واستهدافها، وقد أبدو انتقائيا ههنا وهذا صحيح ولا ضير في ذلك كون أن هذه الأبعاد هي الأكثر اتصالا باستهداف اللغة، فإن استهدفت الثقافة فضاعت، فقد استهدفت اللغة هي الأخرى وضاعت أيضا، والعكس صحيح، وانطلاقا من هذا الفهم سنجد انفسنا أمام ما سيخلص إليه استهداف العولمة للأبعاد السالفة الذكر ألا وهو استهداف مسألة حقوق اللغة (LANGUAGE RIGHTS) وكذلك اللغويات العرقية (ETHNOLINGUSTIC) للوصول إلى هيمنة اللغة الإنكليزية العالمية (CLOBAL ENGLISH). ولأجل الولوج في اثر هذه الأبعاد المستهدفة التي ستتوج باستهداف اللغة وإن كانت العربية هي أولى الأولويات ههنا كان لا بد من الالتفات إلى مسألة الإغراق الثقافي أيضا (CULTURAL DUMPING) وهو خلاصة البديل للمسألة الثقافية وكيف يمكن تحويلها واللغة إلى سلعة يشكلها المعولم ويفرضها على المعولم بالقوة والسيطرة المطلقة.

ثانياً: العولمة - المفهوم

ما كان من مهاد هذا البحث بد؛ لأنه سيساعدنا في الوصول إلى المعنى الحقيقي لمفهوم العولمة وفق البنية الدلالية والمرمى العميق المرجو الذي يهدف إليه. العولمة: وهي " مشتقة من الكلمة (CLOBE) أي الكرة والمقصود هنا الكرة الأرضية ويتحدث علماء الاجتماع في مجال التحديث عن (CLOBAL CULTURE) أي الثقافة العالمية، وال (CLOBALIZATION) اصطلاحاً باللغة اللاتينية تدل على مشروع لمركز العالم في حضارة واحدة " (١).

والعولمة في توقيع آخر تعني مرتبطة بلفظ آخر وهو العالمية (INTERNATIONALIZATION). وهما " لفظان مشتقان من معنى الشمول والكلية والانتشار والعموم وبالتالي كلاهما مصطلح لمضمون واحد وذلك بالنظر إلى الغايات التي يقصدانها. (٢).

والعولمة كما يراها جان نيدرلين ليست " فكرة بريئة وإن المتغير المتدخل في أغلب السياسات هو الحداثة وهناك ثلاث قوى موجهة - العولمة والحداثة والثقافة - تأتي معا في حزمة مع التحديث باعتباره المتغير البات" (٣)

ولم ينفك مفهوم العولمة عن الرأسمالية فقد تناقل الباحثون العولمة بوصفها امتداداً للرأسمالية العالمية أو لربما تكون الوجه الآخر لها وإن بدا لبعضهم أن هدفها نزيه يذهب إلى تحويل العالم إلى قرية صغيرة تضمن لها تكنولوجيا الاتصالات تبادل المعلومات بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية.

بيد أن هذه النزاهة سرعان ما تتكشف لتبدو جلية أمام المنظرين والمقعدن للعولمة فهناك من تبني الرأي الذي يرى فيه اتصالاً عميقاً بالرأسمالية فهي " لم ولن تقتصر على إتاحة فرص التجارة والعمال وانتقال البضائع والمنتجات وإنما رافق ذلك معطيات ثقافية وسياسية وإعلامية واجتماعية فتلك البضائع والمنتجات وطرق إدارتها واستخدامها وكيفية التعامل معها ليست محايدة وإنما تحمل في جوفها ومعها الثقافة الأقوى" (٤).

ونستشف من الفهم السابق أن ثقافة المعولم هي التي ستحكم وتتحكم بثقافة المعولم أو تلغيها، وهذا يعني نمو المفهوم من مفهوم الرأسمالية الاقتصادية إلى الرأسمالية الثقافية وبالتالي باتت الثقافة سلعة وهنا مكنم الخطر.

وراح بعض الدارسين إلى أبعد من ربط العولمة بالرأسمالية بل رأوا فيها تزامنية النشأة والتطور، يقول بعضهم " كانت العولمة أو الأمر عبارة عن الإمبريالية، استعمار العالم من خلال قوى الاستعمار، ثم كانت مرحلة التخلص من الاستعمار والاستعمار الجديد... تشكل السنوات بين ١٨٥٠-١٨٦٠ مرحلة مفصلية في ولادة العالمية " (٥).

وبذا تكون العولمة حلما قديم النشأة حديث التبلور ربما ساعدت التكنولوجيا على تسريعها في الحقبة الزمنية الأخيرة التي نشهدها الآن، ويبدو أن السياسات الليبرالية أيضا قد ساعدت على ذلك وهي " ترسم لنا صورة المستقبل بالعودة إلى الماضي السحيق للرأسمالية " (٦).

وإن كانت الرأسمالية تبحث عن نشر أمية رأس المال والتحكم به فإن العولمة تبحث في أمية اللغة والحضارة والثقافة والعادات والتقاليد بمنأى عن الزمان والمكان، لتحكم قبضتها على العالم أينما كان، وبشكل شمولي وهنا تتأزم المعضلة بحيث يتحول كل شيء إلى سلعة مجردة من قيمتها المعنوية ومن زمانها وتاريخها وقيمها وهويتها لا سيما اللغة والثقافة، فالعولمة لم تعد تنجّل من إعلان هدفها الرامي إلى " تسليع كل شيء بصورة أو بأخرى وفي كل مكان بما في ذلك أشكال الإنتاج غير الرأسمالية وقبل الرأسمالية وتلك التي كانت محاذية وموازية للأشكال الرأسمالية، إنها أمية رأس المال على الأصعدة كلها وعلى المستويات السطحية منها والعميقة" (٧)

إذن الثقافة مستهدفة وبالتالي اللغة مستهدفة فمفهوم العولمة بدأ بجوانب خفية كانت تنمو كنمو السرطان في الجسد فيطال أبعادا أخرى تجاوزت الرأسمالية لتصل إلى صدام الحضارات والثقافات وهيمنة اللغات وبالتالي لم تعد الدول تصنف وفق التصنيف التقليدي بحسب سياساتها وسياسات اقتصاداتها فمن " خلال الحرب الباردة كان العالم ينقسم إلى عالم أول وثان وثالث هذه الحدود لم تعد ذات دلالة ن ولعل من الأفضل الآن تصنيف الدول ليس من خلال أنظمتها السياسية والاقتصادية أو شروط تصورها الاقتصادي بل من خلال شروط ثقافتها وحضارتها " (٨).

ثالثا: العولمة واللغة

اللغة والثقافة هوية واحدة تشكل الحضارة إذ لا يمكن للعولمة أن تستهدف اللغة أية لغة في هذا العالم بمنأى عن استهداف حضارة وثقافة تلك اللغة التي رافقتها من النشأة

حتى التبلور في بوتقة واحدة فاللغة بقول آخر هي عماد الحضارات وركن الثقافة الوطنية التي يضمن لها الاستمرار فإن استمرت اللغة في كيانها الطبيعي المناطقي استمرت تلك الحضارة في منطقتها وإن ماتت اللغة ولم يعد لها كيان في محيط اللغات الحية الأخرى ماتت الحضارة وانتهت الثقافة، وليس أدل على دور اللغة في خلق الحضارات والثقافة من تلك الحضارات التي نشأت في الشرق وعلى رأسها الحضارة المصرية القديمة التي كفلت لها اللغة الهيروغليفية المقدسة الاستمرار لتسمى حضارة الموت، فرافق تلك اللغة الفكر العمراني المتبدي في الأهرامات والكتابات، وإن كانت اللغة الهيروغليفية مقتصرة على الفراعنة والحاشية، ومنها حضارة الميزوبوتام في العراق ودور اللغات السومرية والآشورية وسواها في مرافقة نمو تلك الحضارة، وخير مثال دامغ على أهمية اللغة في الحضارة تلك الثورة التاريخية في تاريخ اللغات التي تمثلت في اختراع الحروف الأبجدية في الحضارة الآرامية التي تركزت في رأس شمرا شمال سوريا. فكانت اللغات المحفورة في الصخر والمسلات والألواح الطينية هي التي حدثنا عن وجود تلك الحضارة ورقيا وطريقة عيشها، وبذا تكون اللغة المعيار العلمي الأساسي في وجود تلك الحضارات.

ولما كانت العولمة تستهدف الحضارات وتسليخها من سياقها التاريخي وكذلك الحال في الثقافات كان كل هذا يعني أنها تستهدف اللغات ليصار إلى هيمنة لغة واحدة عالمية كالإنكليزية مثلا، أو هيمنة أكثر من لغة كاللغات الأوروبية الأخرى مثلا بوصفها تقوم هي الأخرى بدور المعولم المهيمن.

رابعاً: طرق ووسائل استهداف العولمة للغات

١. العولمة والإبادة العرقية واللغة

ولا تعني الإبادة العرقية ههنا مفهوم القتل البدني بذاته، بل قد تباد الأعراق من خلال إبادة اللغة وبطريقة بعيدة كل البعد عن العنف، بمعنى أنه " يمكن تصور التمييز اللغوي والإمبريالية الثقافية والتجانس كأشياء تسمح بحدوث انقراض الثقافات ويشار إلى الإبادة العرقية أيضاً بالتطهير العرقي الثقافي أو الإبادة الثقافية " (٩) ولربما يتصل هذا البعد المستهدف بما يسمى بـ اللغويات العرقية الذي يدمج مفهوم " العرقية بالثقافة واللغة ومن ثم فله نطاق من التطبيقات كفرع من الأنثروبولوجيا أو علم الاجتماع

اللغوي " (١٠)، وما يتبعه من تنبؤات بسلوك الجماعات في المستقبل كأن تحمي لغتها المهددة من الضياع كون اللغة هي العامل الأساسي الذي يحدد لهاتيك الجماعات هويتها الحقيقية

٢. ازدواج الثقافة ازدواج اللغة

تبدأ العولمة وبشكل تهيدي بفرض الازدواج الثقافي الذي سيؤدي لا محالة إلى وجود الازدواج اللغوي، بناء على الفهم الذي سبق بأن اللغة هي الركن الأساسي الذي يوجه الثقافات، ويطلق على مزدوجي الثقافة بالمهمشين ليشير إلى " تطابق المصطلح مع الأقليات من جهة العدد أو فيما يتعلق بالحالة أو غالبا مع أهل الثقافة الأصليين الذين ينشدون الحفاظ على أسلوب الحياة التقليدي وكما الحال مع ازدواجية اللغة " (١١)

٣. الإمبريالية الثقافية واللغة

وهذا أكثر ما يتصل بهيمنة اللغة الإنكليزية على العالم بجميع أشكال الحياة ومناحيها للوصول إلى أمية اللغة الإنكليزية بوصفها لغة العالمية كما وصلوا إلى أمية راس المال من قبل والذي امتد إلى رسملة الثقافة وهي " نوع من رأس المال اللغوي " (١٢) ولعل هذا أيضا متصل بحقوق اللغات المحلية الأخرى التي سيتلاشى استخدامها شيئا فشيئا، فكلما " يتعلم / يتحدث عدد أكبر من الناس اللغة الإنكليزية يقل عدد الذين يتعلمون اللغات الأخرى " (١٣). وبذا تندثر لغة الأقليات واللغات الرسمية وتعم حالة من الضياع الثقافي في البلاد المستهدفة. ومن أجل وقف هذه الهيمنة لا بد من مراجعة السياسات اللغوية في البلاد المستهدفة وجعل لغاتها هي لغة الإنتاج والاقتصاد والعلم للحؤول دون اتساع الفجوة على أقل تقدير بين اللغة الدخيلة – الإنكليزية واللغات الرسمية المحلية التي ستصبح لغات مهمشة إن لم يكن هناك تدارك حقيقي. لأن النتيجة الحتمية لهذه الهيمنة هي تؤدي فقط إلى تهميش الاختلافات، بل وإلى ضياع الثقافة والتاريخ واضطهاد متحدثي هذه الأقليات (١٤)

٤. العولمة وفكرة التعددية الثقافية واللغة

تتخذ العولمة من هذه فكرة التعددية اللغوية طريقاً للتخفي تحت شعار التسامح الذي يشجع التنوع، والتعددية تشير " إما للسياسة الاجتماعية التي تقبل وتشجع الاختلاف في اللغة أو الثقافة أو الدين " (١٥). كما يقتضي هذه الفكرة إخضاع الأقليات للتعامل مع الأغلبية التي سترتبط بهذه الثقافات الجديدة وبالتالي ضياع لغات الأقليات.

٥. العولمة والتكامل الثقافي واللغة

ولن تقتصر العولمة على فكرة تعددية الثقافات فقط لأنها تسمح ولو بشكل قليل لوجود أكثر من ثقافة مجتمعية في المكان الواحد وقد يكون للثقافة الأصلية حظاً بسيطاً من الوجود، إلا أن العولمة تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك وهو التكامل الثقافي وهو العامل الذي يكفل سيطرة ثقافة المعولم – القوي على ثقافة المعولم – الضعيف، فيبدأ هذا العامل بإذابة " الفوارق وقد يستخدم هذا المصطلح أيضاً ليقصد به التشابه بين الثقافات وفي هذه الحالة سوف يخضع أصحاب الثقافات الأقل مكانة للقوة لقوموا باعتراف والاندماج مع قيم الثقافة الأحدث والأعلى مكانة " (١٦)، وبذا ومع وجود ثقافة هي الأقوى هذا سيؤدي إلى وجود لغات معيارية وهذه اللغات المعيارية هي التي ستستبدل المشهد الثقافي الدخيل متبوئاً مكان المشهد القومي الأصلي.

٦. العولمة وحقوق اللغة

والسؤال ههنا هل يمكن إدراج حقوق اللغة في منظومة حقوق الإنسان التي أقرتها المنظمات الإنسانية والعالمية وعلى رأسها الأمم المتحدة، الجواب نعم هناك حقوق للغة تماثل إن لم تتفوق في الأهمية على حقوق الإنسان، ويمكن أن يتحول هذا الاتجاه في حقوق اللغة إلى منحى سياسي خالص فاللغة هي حق من حقوق الإنسان وهي مرتبطة بالثقافة أو تماثلها، و " بالتالي يعتقد أن ضياع اللغة ضياع للثقافة كما يربط البعض اللغة بالغرض السياسي والهوية وفي كلتا الحالتين تصبح اللغة علامة على الاختلاف وفعلاً يحتمل أي اختلاف لغوي كلغة معاني ضمنية سياسية " (١٧). ونم حق اللغة أن تكون جزءاً أساسياً من المواطنة، وهذا ما فعله السياسيون اللغويون في بريطانيا عندما قدموا اختبارات اللغة الإنجليزية بوصفه أهم جزء من مؤهلات المواطنة في بريطانيا.

٧. العولمة وصراع الحضارات واللغة.

تؤطر كثير من الدراسات العليا في الجامعات الغربية من مثل العلاقات الدولية والسياسة الدولية لمفهوم كيفية العلاقات بين الدول، وكيف ينبغي لها أن تكون بشكل قد يبدو لائقا للكثير ممن درسوا هذا التخصص، بيد أن التأطير يناقض الواقع الفعلي وهي تحفي في حيثياتها أهدافا هي المرجوة في النهاية تقوم على نشر الثقافات الغربية من خلال لغة تلك الثقافات من جانب ومن جانب آخر وهو الأشد خطورة يتمثل في القضاء على الحضارات الأخرى بما فيها لغاتها إن علمنا أن " العلاقات الدولية إنما تقوم أساسا على نزاع شرس بين حضارات مختلفة بطبيعتها " (١٨)، وهذا يعني التقاء أهداف هاتيك الدراسات وأهداف العولمة ولربما نستطيع القول بأن مثل تلك التخصصات إنما هي وليدة العولمة.

وتقدم العولمة بديلا ليس بريئا البتة لتخليص العالم من معضلة صراع الحضارات والصراعات اللغوية فتعمل جاهدة على " تحويل النصوص في كل الثقافات (إزالة الحواجز) والحضارات في إطار ثقافة عالمية وعلمانية" (١٩)، وهذا البديل المزعوم لا ينفك عن سيطرة المعلوم على المعلوم.

ولننظر إلى المثال الياباني لماذا لم يستطع الغرب حتى اللحظة أن يحدث التحويل الذي تبتغيه العولمة، فلم تصطدم العولمة بالحضارة اليابانية العريقة ولم تستطع تغيير اللغة العلمية في اليابان إلى الإنجليزية، بل بقيت اللغة اليابانية هي اللغة التواصلية والعلمية في نقل الأفكار بين اليابانيين مع أن اللغة اليابانية ليست لغة تواصلية عالمية ومع ذلك تقدمت اليابان تقدما علميا وتكنولوجيا يكاد يتفوق على التقدم العلمي الغربي في كثير من مجالاته، والسبب في كل ذلك هو أن اليابان حافظت على حضارتها وتطورها من خلال اعتماد اللغة الأم اليابانية. وهذا وقف حاجزا منيعا أمام العولمة التي أحالت الصراع الحضاري اللغوي بين الغرب والشرق على وجه التحديد وعلى أساس ديني، في حين أن العولمة لا يمكن أن تتوانى في فرض هيمنتها إن استطاعت على اليابان لو توفر لها ما توفر للفرنسين الذين سئموا الحروب في أفريقيا وأدركوا بأنه " لا بد من منهج جديد للسيطرة فكانوا ينشرون لغتهم وثقافتهم " (٢٠) خاصة في دول إفريقيا وبعض بلاد الشرق الأوسط.

ويقوم الصراع الحضاري على التفاضلية الثقافية التي تعتمد اللغة بوصفها الفيصل للحدود الثقافية وحتى القومية، فالرومانسيون مثلاً وعلى رأسهم يوهان هيرد حاولوا إحياء فكرة القومية والحدود الثقافية " في شكل اللغة باعتبارها الأساس للقومية " (٢١)، وبذا تكون اللغة مستهدفة بوصفها أحد العناصر التي تقوم عليها أية تكتلات حضارية إضافة إلى التاريخ والدين والتقاليد التي تؤسس للهوية الشخصية للمجتمعات.

٨. العولمة والمخزون الثقافي واللغة

ويعرف المخزون الثقافي بأن الإرث الثقافي لأي أمة من الأمم ولا يقتصر فقط على العادات والتقاليد وتقلها بشكل تقليدي، كما لا يقتصر على الأشياء الملموسة فحسب دائماً " مثل النصوص المقدسة أو التذكارات ولكن يتعلق باللغة أيضاً والمنهج الذي تم من خلاله تشكيل المشهد الثقافي واستيعابه " (٢٢). بيد أن العولمة تنظر إلى أنه من الممكن تخزين المخزون الثقافي البشري في متحف وهذا يعني اغتيال صناعات البشر، لأنها تستثني العنصر البشري في هاتيك المتاحف، والذي لا تريده العولمة هو إقصاء تخزين الثقافة المعنوية التي تكفل الحفاظ على الممارسات لأن هذا المطلب لا شك أنه يقتضي دوراً لحماية الأرض وكذلك يستلزم تعديلات للقوانين واحتراماً حيويًا للاختلاف. فقد " تكتب اللغة على سبيل المثال بواسطة عالم لغوي ولكن إن لم يكن هناك أي من متحدثي اللغة يكون العمل اللغوي مجرد توثيق تاريخي في الواقع " (٢٣). وهكذا تهدف العولمة إلى اختزال المخزون الثقافي للأمم بما فيها لغاتها القومية والحضارية السالفة في بوتقة متحف مجرد من الممارسات الحقيقية التي تفضيها تلك الحضارات ولغاتها.

خامساً: العولمة واللغة العربية

هناك مقولة مؤداها أن من لا يعترف بالعولمة أو يعارضها شخص تقليدي وغير متطور ولربما يوسم بما هو أشد من ذلك من مثل متخلف وعاجز عن اللحاق بركب عجلة التطور العالمي.

بيد أنه من حق هؤلاء التقليديين أن يشككوا بالعولمة وبطرقها الملتوية على أقل تقدير، وربما يجمل بنا القول إن الدال (تقليدي) كمصطلح يدل على التخلف إنما هو من صناعة العولمة الذي وصفت فيه معارضيهما والذين وقفوا ضد التحول السلبي الذي نشدته، فبدا وللأسف وكأنه سبب تتصل بأي شخص يرفض الحداثة والعولمة.

ولسنا نعدو الصواب إن قلنا إن اللغة العربية هي أولى اللغات العالمية استهدافا للعولمة لأنها وبكل بساطة هي لغة القرآن والإسلام الذي يؤمه كل المسلمين في هذا العالم ودليل ذلك أننا نجد الحضارات العالمية موسومة بمسميات تقوم على التصنيف المكاني أو العرقي إلا الحضارة العربية فقد صنفت تحت مسمى الحضارة الإسلامية وليس هذا اعتراض بل هو إيماء يعبر عن أهداف الفكر الغربي الذي يتبنى فكرة العولمة، فمثلا يقال الحضارة الغربية والحضارة الإفريقية والحضارة الآسيوية واليابانية والصينية في حين يقال الحضارة الإسلامية ولا يقال الحضارة العربية ومجمل القول أن حضارة العرب صُنفت تصنيفا دينيا.

ولما كانت الحضارة الإسلامية في أوج رقيها تتخذ اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - بوصفها لغة التواصل الاجتماعي والأدبي والعلمي كان النجاح هو الحليف الختامي لها، وبالتالي استهداف اللغة العربية يعني بكل الأشكال استهداف الحضارة الإسلامية مضمّن فيها الحضارة العربية، فاللغة العربية هي آخر ما تبقى من المخزون الحضاري للعرب.

وعطفا على هذا الفهم تنبّهت العولمة جيدا إلى أهمية محاربة اللغة العربية ليس لأنها تعبير حي عن الحضارة الإسلامية فحسب بل لأنها العامل الطبيعي الاجتماعي الذي قد يقود العرب والمسلمين إلى الوحدة الشمولية التي تتجاوز الوحدة القومية عند العرب أنفسهم، وخير دليل على دور اللغات في توحيد الأمم ما حدث في أوروبا وكيف شكلت "أوروبا التي مزقتها الصراعات وحدة حضارية حيث اخترعت الأفكار الرئيسة للفكر التي تحمل دعوة عالمية وبالرغم من أن أوروبا لم تكن يوما متحدة سياسيا إلا أن إطارها الروحي يضيف عليها التماسك المنشود لقد سمحت اللغة المشتركة أي اللاتينية وهي أول عنصر جامع خلال قرون طويلة بتخطي الانقسامات " (٢٤)، فالعولمة التي تنبّهت إلى سر تماسك أوروبا تعلم يقينا أيما يقين أن اللغة العربية قد تأخذ دورها في وحدة العرب والمسلمين بنفس الدور الذي قامت به اللغة اللاتينية في توحيد الروح الأوروبية، إنه هيئ وفكرة العولمة في استهداف اللغات وقفت عاجزة عن استهداف الكثير من اللغات لأنها لغة العلوم في بلدانها، فراحت تستفرد باللغة العربية لأنها وجدت في الحيز العربي المكان الأمثل والأضعف لتنفيذ سياساتها وهذا ليس بخاف على

أحد فعلى سبيل المثال هناك " انفجار لغوي كما حدث مع اللغة العبرية في إسرائيل واللغات المحلية في أوروبا مثل الكتالانية في إسبانيا ولغة ويلز أو اللغات المحلية مثل اللهجات الصينية في سنغافورة وغيرها من اللغات المحلية مثل اللهجات الصينية في سنغافورة وغيرها من اللغات التي بدأت تشكل نواة للقوميات المستيقظة في أوروبا وآسيا وإفريقيا " (٢٥).

بيد أنه لا يمكن الإنكار أن هناك ثقافة لغوية في العالم العربي آخذة في التشكيل إن لم يكن قد تشكلت بالفعل في كثير من بلدانه، وإن مواجهتها اقتضت على توصيف المشكلة بالغزو الثقافي أو بصراع الحضارات أو باستهداف اللغة العربية القومية وسوى ذلك ولكن من الأهمية بمكان أن نلفت إلى أنه " مهما يكن الوصف المعطى فإنه لا ينفي الحقيقة القائمة ألا أن مثل هذه الثقافة تنتشر وتسود على حساب ثقافات محلية وقومية عديدة، وبذلك قد نشجب مثل هذه الثقافة وقد نرفضها ولكن لا الرفض ولا الشجب قادران على المنافسة في عصر المتغيرات المتسارعة " (٢٦). وهنا يتبدى العجز العربي في الرد على العولمة والحدثة إذ يرى تركي الحمد وقد أصاب المفصل الحقيقي أن عدم تقديم البدائل الثقافية التي تحد هيمنة العولمة وسطوتها على أقل تقدير هي التحدي الذي يواجه العرب.

ولا تقتصر مواجهة العولمة وهي تستهدف اللغة العربية على إيجاد البديل الثقافي فحسب، بل لا بد من " مواجهة الآخر بالعلم والثقافة أي المواجهة بالمعنى المعرفي تؤهلنا إلى انتقال تلك المواجهة إلى ساحات أرحب " (٢٧) أكثر إفادة وإيجابية ولعل هذا أفضل من أن

والسؤال الذي يحضر الآن هل العرب قادرون على مواجهة العولمة وتحديها ؟ الجواب يتوقف على قدرة العرب والمسلمين بوصفهم تكتلا حضاريا متحركا على المواجهة، فإن تعذر ذلك فلا بد على الأقل من المشاركة في هاتيك العولمة وبذل الجهود لتصحيح أهدافها الدفينة، فالعولمة الحققة تلك التي تهدف إلى بناء نظام عولمي إنساني الطابع والاتجاه لا يتم إلا عبر مشاركة الجميع في تشكيله " (٢٨) وألا يقتصر على القوي في إدارة وتوجيه الضعيف كما يريد. ولعل هذا أفضل من أن يبقى العرب لا يركون

ساكننا وليس منهم سوى التسليم بنتائج العولمة مهما كانت ومن ثم إعلان رضاهم عن هذه النتائج المقيّنة.

وللعولمة مظاهر بل حقائق كثيرة متفشية وواضحة تدل على سطوتها على اللغة العربية، لعل أهمها ما يظهر في " الثنائيات المتناقضة الحادة بين الطوائف المذهبية والدينية والعرقية والقبلية واللغوية " (٢٩) وخير دليل على ذلك الصراعات التي تشهدها بلاد الشام من حروب طائفية ومذهبية وقبلية وقومية.

ومن ذلك أيضا ما يتبدى في سياسات التعليم الجامعي في البلاد العربية بحجة اللحاق بركب التطور العلمي والتي شرعت في إدراج اللغة الإنكليزية والفرنسية بوصفها لغة المقررات التعليمية في النظام التعليمي الشمولي.

ومن هاتيك المظاهر السلبية التي كانت نتيجة سطوة العولمة ما نراه من " فجوة كبيرة بين اللغة العربية ولغات العالم ولا سيما لغات الدول الرأسمالية الكبرى سواء فجوة في التنظير أو فجوة في المفاهيم " (٣٠).

ولم يقتصر تأثير العولمة في اللغة العربية على أحداث الفجوة بينها وبين اللغات الأخرى بل تجاوزت ذلك إلى أنها أقدت العربية خاصية التواصل على المستوى العلمي والأكاديمي والبحثي بعد أن كانت اللغة العربية هي حاضنة العلم والمعارف وأحلت محله " اللغة الإنكليزية وسواها من لغات الدول الرأسمالية الكبرى وهي التي يتزايد تأثيرها لمحق الثقافة العربية وطمس الخصوصيات الوطنية " (٣١)

ومن آثار العولمة في المنظومة التعليمية العربية ككل عجز هذه المنظومة عن استيعاب لغة التقنية الحديثة كما وأن هذا العجز ملحوظ في إقصاء التعريب وعدم ترجمة الكتب العلمية الأجنبية وعدم تبني البحوث العلمية تبنيًا جادا، وكل هذه السياسات العربية السلبية أتاحت للغة الإنكليزية لتتسيد شتى المجالات الاقتصادية والتجارية والمهنية والسياسية والتقنية، ولا شك أن مجامع اللغة العربية هي الأخرى قاصرة وتحمل المسؤولية التاريخية جراء عجزها وقصورها، ولعل هذا السلوك السياسي اللغوي العربي هو الذي أسهم في تفاقم المشكلة بمعنى أنها كانت بشكل أو بآخر مساندة وداعمة لتوجه العولمة فمحدودية المؤسسات وابتعاد الجامعات العربية عن البركان المعرفي والعلمي

وتقلص المهارات البحثية لم تكن بسبب العولمة ذاتها بل وجدت العولمة من يقوم عنها بهذا الدور.

ومن مظاهر تفوق العولمة وسطوتها على اللغة العربية ما نجده في الدخيل اللغوي الأجنبي في اللغة الإعلامية العربية بحيث تطعم اللغة الإعلامية بكثير من المصطلحات والدوال الأجنبية التي يوجد لها بدائل في الدوال العربية إذ لا مبرر لوجودها على الإطلاق، وهذا السبيل السلبي سيحدث التحول الخطير في شخصية المجتمع لما للإعلام من أثر كبير في المتلقين.

ولعل أخطر مظاهر العولمة في العالم العربي هو تحدي الهوية بشخصيتها العربية من خلال إقصاء اللغة العربية فتقدم الشخصية العربية لا يمكن " أن يتم بمعزل عن تقدم اللغة العربية فالنظريات المعاصرة من حولنا ترى استحالة الفصل بين اللغة ومتكلمها ومنها نظرية الحتمية اللغوية للفيلسوف الألماني ولهام هبولدت الذي يرى أن الناس هم تبع في تفكيرهم وإحساسهم ومشاعرهم ونظرتهم للكون للعادات التي اكتسبوها من خلال ممارستهم للغة " (٣٢).

ومن مظاهر العولمة الخطيرة جدا ما نشاهده من سلوك لغوي عند شبابنا العربي الناشئ عبر مواقع التواصل الاجتماعي الإلكتروني وعبر الهاتف المحمول من استبدال الحرف العربي بالحرف الإنكليزي في تبادل الرسائل والتعليقات، وهذا من أخطر النتائج التي حققتها العولمة ؛ إذا استطاعت أن تخلق جيلا منسلخا عن حرفه العربي، وبذا حققت العولمة دوغما عناء ما حققت سياسات دول استغرقت وقتا طويلا في تنفيذ سياساتها اللغوية المعادية للغة العربية ومنها تلك السياسة التي انتهجتها روسيا في محاربة الخط العربي في الصين لأجل إحلال الحرف الروسي مكانه (الليركل) في مقاطعة (سين ليانج) لطمس الهوية الثقافية الإسلامية ومن هذا المنطلق فقد " تكاثرت عمليات إلغاء الحروف العربية من اللغات التي كانت تستخدمها في فترة المد الإسلامي وكان مؤشر الانهيار الخطير والبدء بإلغاء هذه الحروف من اللغة التركية ذاتها التي كانت تمثل لغة الخلافة الإسلامية على امتداد أربعة قرون وهو إلغاء لم يتوقف عند إلغاء الحروف العربية واستبدال الحروف اللاتينية بل إنهم ألغوا الكلمات العربية التي كانت كثيرة الشيع في اللغة التركية واستبدلوها بكلمات تركية مهمة " (٣٣).

الخاتمة:

ظهر لنا مما سبق أهم مظاهر العولمة التي تهدد واقع اللغة العربية إذ لا بد من تداركها قبل استفحال الخطر الذي ما زال محدقاً باللغة العربية التي حسبها أنها لغة القرآن الكريم وقد حباها الله الحماية واكتسبت في نفوس المسلمين والعرب كل المهابة والاحترام فالمكانة الدينية للغة العربية كفيلة بحمايتها واستمرارها بيد أنه لا يمكن الركون إلى ذلك والتخلي عن مسؤولياتها تجاه حماية العربية وبالتالي ديمومتها وديمومة حضارتها الاجتماعية والأدبية والدينية والانتقال بها إلى لغة العلم التي بها وحدها تثمر آمال الأمة في التقدم والعزة والاستمرار، وبها وحدها يتبلور المشروع الوحدوي العربي القائم على وحدة هذه اللغة والتاريخ المشترك.

هوامش البحث

- (١) بركات محمد مراد - ظاهرة العولمة رؤية نقدية، ط١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠٠٢، ص ٩١
- (٢) أحمد الحاج علي - العولمة والتربية آفاق مستقبلية ط١، وزارة الأوقاف، ط ١، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، ٢٠١١، ص ٣٨
- (٣) جان نيدرلين - العولمة والثقافة المزيج الكوني، ط١، العدد ٢٢٤٢، ترجمة خان كسروي، المركز القومي للنشر، القاهرة، ٢٠١٥، ص ١٩٥
- (٤) أحمد الحاج علي - مصدر سابق، ص ٢٠
- (٥) جيرار ليكلراك - العولمة الثقافية الحضارية على المحك، ط١، ترجمة جروج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤، ص ١٧٩
- (٦) هانس - بيترمارتن - هارالد شومان - فح العولمة ترجمة عدنان عباس علي، مجلة عالم المعرفة، عدد ٢٣٨، الكويت، ١٩٩٨، ص ٨
- (٧) مولود زايد الطيب - العولمة والتماسك المجتمعي في العالم العربية، ط١، المركز العالمي للدراسات، ليبيا، ٢٠٠٥، ص ١٦
- (٨) جاكلين روس - مغامرة الفكر الأوروبي قصة الأفكار الغربية، ط١، ترجمة أمل ديبو، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١١، ص ٩
- (٩) أنابيل موني وبيتسي إيفانز: العولمة المفاهيم الأساسية ط١، ترجمة آسيا دسوقي ومراجعة سمير كرم وآخرون، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٣١

- (١٠) أنابيل موني - مصدر سابق ص ٢٣٤
- (١١) أنابيل موني - مصدر سابق ص ٣٩
- (١٢) أنابيل موني - مصدر سابق، ص ١٦٧
- (١٣) أنابيل موني - مصدر سابق ص ٢٣٣
- (١٤) أنابيل موني - مصدر سابق ص ١٤٢
- (١٥) أنابيل موني - مصدر سابق ص ٩٩
- (١٦) أنابيل موني - مصدر سابق ص ١٠٦
- (١٧) أنابيل موني - مصدر سابق، ص ١٤٣
- (١٨) جيرار ليكرات - العولمة الثقافية الحضارات على المحك - مصدر سابق، ص ٣٦٦
- (١٩) جيرار ليكرات - مصدر سابق، ص ٣٢٩
- (٢٠) مولود زايد الطبيب - العولمة والتماسك، مصدر سابق ص ١٥٣
- (٢١) جان نيدرلين - العولمة والثقافة، مصدر سابق، ص ٧٤
- (٢٢) أنابيل موني - مصدر سابق ص ٢٦٥
- (٢٣) أنابيل موني - مصدر سابق، ص ٢٦٥
- (٢٤) جاكليين روس - مصدر سابق ص ١٧
- (٢٥) أحمد درويش - ثقافتنا في عصر العولمة، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٥٤
- (٢٦) تركي الحمد - الثقافة العربية في عصر العولمة، ط١، دار الساقى، بيروت، ١٩٩٩، ص ١١
- (٢٧) يركات محمد مراد - مصدر سابق، ص ١٩٦
- (٢٨) المصدر السابق، ص ٢٠٠
- (٢٩) أحمد علي الحاج - مصدر سابق، ص ١٥٥
- (٣٠) نبيل علي - الثقافة العربية وعصر العولمة، مجلة عالم المعرفة، وزارة الثقافة، الكويت، ص ٣٨
- (٣١) أحمد علي الحاج - مصدر سابق، ص ١٥٩
- (٣٢) أحمد درويش - مصدر سابق، ص ٥٤
- (٣٣) أحمد درويش - مصدر سابق، ص ٦٤

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن جني أبي الفتح عثمان، الخصائص، دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ٢٠١٠.

٢. جلال الدين، عبد الرحمان ابن أبي بكر السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، دار الكتب العلمية. حلب. دط. ج ١.
٣. أحمد السيد، اللغة العربية وتحديات العصر، الهيئة العامة، السورية للكتاب، دمشق. د ط ٢٠٠١م.
٤. بلال علي إبراهيم، النسر. العولمة وأثارها على الدول العربية. دار جليس الزمن. ط١، ٢٠٠١م.
٥. باسل علي خريسان. العولمة والتحدي الثقافي. دار الفكر العربي. بيروت. ط١، ٢٠٠١م.
٦. حسين جمعة. اللغة العربية إرث ارتقاء حياة، منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. د ط ٢٠١٠.
٧. خالد زواوي. اللغة العربية. طيبة ونشر وتوزيع. الإسكندرية. د ط دت.
٨. رضا محمد الداعوق. العولمة تداعيتها وأثارها. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ٢٠٠٥م.
٩. سعيد حاري، الثقافة والعولمة. دار الكتاب الجامعي للعين. الإمارات العربية، المتحدة. دت، ٢٠٠٢م
١٠. سعيد عبد الله الفي، التكامل بين التقنية واللغة. دار عالم الكتب. القاهرة. ط١. ٢٠٠٦م.
١١. عبد العلي سالم مكرم. اللغة العربية في رحاب القرآن الكريم. دار عالم الكتب. ط١. ١٩٩١م.
١٢. عبد الكريم بكار. العولمة طبيعتها، وسائلها، تحدياتها، التعامل معا. المملكة الأردنية الهاشمية ط١، ٢٠١٣م.
١٣. المجلس الأعلى للغة العربية. مستقبل اللغة العربية في سوق اللغات. المطبع الشمسية. للطباعة. الجزائر. ١٩٩٠.
١٤. محمد حسين البرغوثي. الثقافة العربية والعولمة. المؤسسة العربية والنشر. بيروت. ط١. ٢٠٠٧.
١٥. محمد عمارة. مخاطر العولمة على الهوية الثقافية. نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة. ط١. ١٩٩٩م.
١٦. محمد عبدو فلغل. اللغة العربية. ثوابت ومتغيرات. دار الينايع. دمشق. ٢٠٠١م.
١٧. هادي فهر. اللغة العربية وتحديات العولمة. عالم الكتاب الحديث. الأردن ط١، ٢٠١٠م.